

سيل العرم

قلم: أحمد بهجت
ريشة: مصطفى حسين



دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ-١٩٨٨م
الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ-١٩٨٩م
الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ-١٩٩٣م
الطبعة الرابعة
١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

قصص القرآن

أصحاب الأخدود

قلم: أحمد بهجت
ريشة: مصطفى حسين

دار الشروق

انطلق الفـارسُ مثـل سهمٍ مـن البرقِ .

راحَ يلهبُ ظهـرَ حِصـانِـه بـالسَّـوطِ ليَستحثّه على الجَريِ ، وكان الحصانُ يَجري بأَقصى طاقَتِه ، وآنحـدَر العرقُ على جسدِ الحِصانِ فَبلَّلَه ، ورغم ذلك فقد ظلّ يَجري في طريقـهِ بين الجِبالِ والسُّهولِ ، مُستجيباً لأمرِ صاحِبِه . .

كـان واضِحـاً أن الفـارسَ الـذي يَضـربُ حِصانَـه يَحمِلُ سِـراً خَطيـراً لا يَحتمِلُ التأجيلَ . .

بعد رِحلةٍ شاقَّـةٍ وصلَ الفـارسُ إلى أَسـوارِ المـدينـةِ . . وكـانت الشمسُ تَنحـدِرُ نحو الغُـروبِ ، وآنتشَـر اللونُ الورديُّ الأحمرُ في السحـابِ وآنعكسَ على وجوهِ السّائرينَ في الطُّرُقاتِ .

ولم يُقلِّلِ الفـارسُ من سُرعتـهِ حين وصـلَ إلى طُرقـاتِ المـدينـةِ ، وأفـزعَ النـاسَ في السـوقِ بسببِ آنـدفـاعِـه ، وأوقـعَ الحِصـانُ في طـريقـهِ بعضَ أَقفـاصِ الفاكهـةِ لبائـعٍ في السُّـوقِ ، وصَرخَ البائـعُ حَزينـاً على فاكِهتِـه التي



تَحطَّمتْ تحت أَقدامِ الحِصانِ . .

ورغمَ ذلك فقد مَضى الفـارسُ يَشُقُّ طـريقَه بنفسِ سُـرعتِه حتى وصـلَ إلى قصرِ الملِكِ .

آستوقَفَه الحـرسُ على بابِ القصـرِ فأَخرجَ لهم خِطاباً من جيبِهِ وقال بِلهجةٍ آمِرَةٍ :

ـ معي خِطابٌ للمَلكِ . .

أَذِنـوا لـه في الـدُّخـولِ ، فـدخـلَ الحـديقةَ وتـرجَّلَ عن حِصـانِه وآنـدفعَ مُسرِعاً حتى وصلَ إلى قاعةِ الانتِظارِ في قَصرِ الملِكِ .



قابَلَه مُديرُ القَصرِ وسأَلَه ماذا يُريدُ .

قـالَ الفـارسُ : أُريـدُ رُؤيَـةَ الملكِ على الفورِ .

قالَ مُديرُ القصرِ : لكنّك تَبدو مُرهَقاً من رِحلتِـكَ ، ولعَلَّكَ لم تـأْكُـل منـذ الصباحِ ، كما أن المَلكَ في آجتماعٍ هامٍ ولاَ أَستطيعُ إِزعاجَه الآن ـ لماذا لاَ تَنتظِر ؟

قـال الفارسُ مُكشِّـراً وقد بـدا عليـه الغضبُ : ليس مُهمّـاً أن أستريـحَ أو آكُـلَ ، إن الرِّسـالـةَ التي أحمِلُهـا لا تَستـطيـعُ الانتـظارَ . يجـبُ أن أَرى الملكَ على الفـورِ . . قُـلْ للمَلكِ إن رَسـولاً من نجرانَ يحمـلُ أَخباراً هـامةً ويُريدُ أن يراكَ .

ذهب مُديرُ القصـرِ إلى الملكِ وعادَ بعد ثوانٍ قليلةٍ إلى الفـارسِ وهويقـولُ له : يَنتظِرُكَ الملكُ في قـاعةِ العـرشِ الآن . . تَفضّل معي . .

سارَ مديرُ القصرِ وسـار الفارسُ معـه حتى وصـلا إلى قاعـةِ العرشِ فتـأَخَّـر مديرُ القصرِ ودخلَ الفارسُ .

آنحنَى الفـارسُ للملِكِ وأَخـرجَ من جَيبِهِ رِسالةً قدَّمَها إليه وهـو صامتٌ . .

فتحَ الملكُ الـرِّسـالـةَ وقـرأَهـا فَتغيـرَ وَجهُـه . . ظهـرتْ عليـهِ عَـلامـاتُ الغضبِ ، مـزَّقَ الرسالةَ وأَلقـاها على الأرضِ . . نهضَ من كُـرسيِّ العرشِ وآتجـهَ نَحو الفـارسِ وقال لـه : هـذه أَخبـارٌ سيئـةٌ . . حـدِّثْني عـنهـا بالتَّفصيلِ .

قال الفارسُ : دخلَ الدينُ الجـديدُ

إلى نجرانَ .

قـال الملكُ : كيفَ يَـدخُـل الـدينُ الجـديـدُ بغيـر إذنٍ مني ؟ هـذا غـزوٌ لِنَجـرانَ . . أكملْ حَـديثَـكَ ، من هـو صاحبُ هذا الدِّينِ الجديدِ ؟

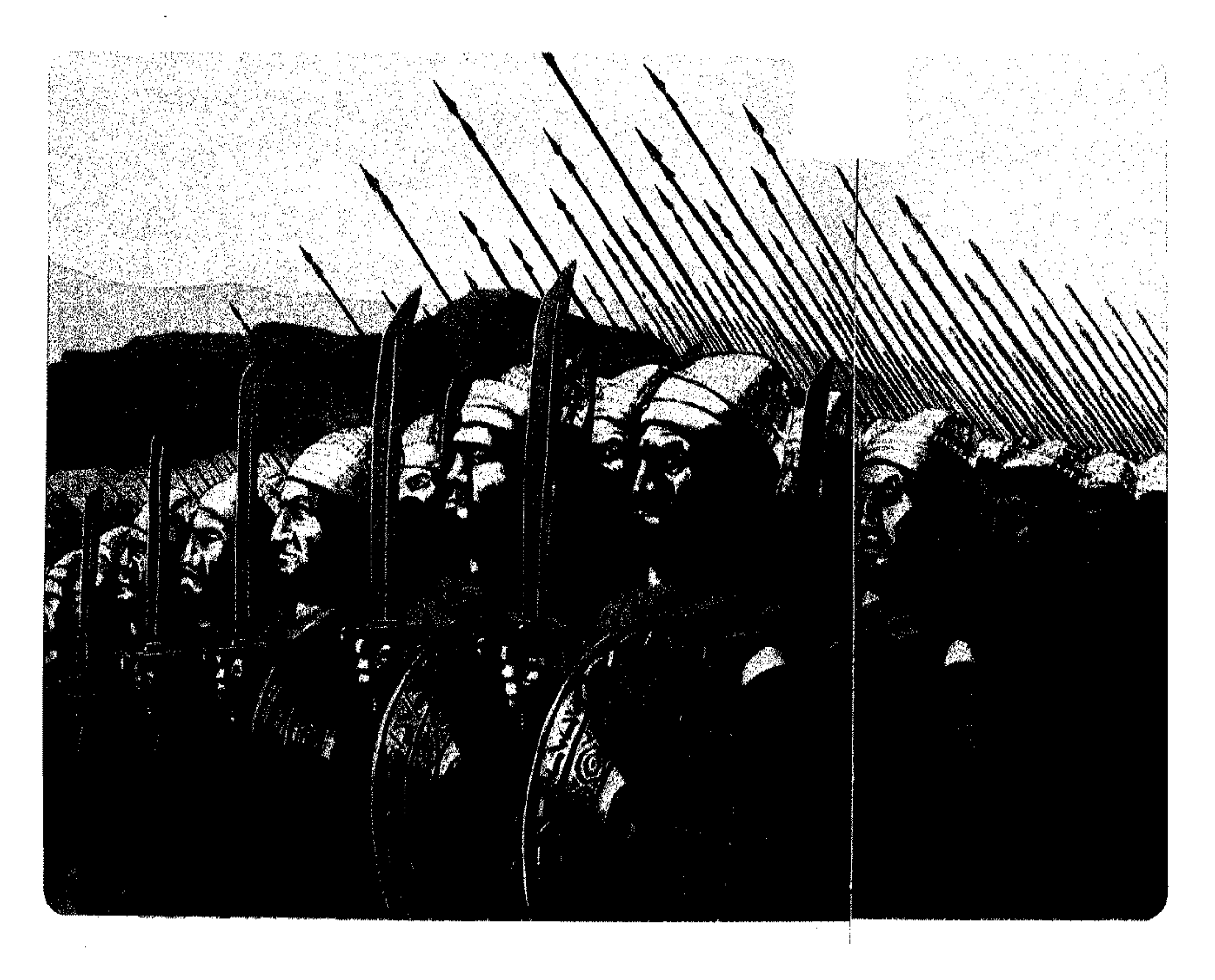
قـال الفارسُ : يقـولونَ إن صـاحبَه نبيٌّ يُسمُّونَه عيسَى المَسيح . .

سأله الملكُ . . ما الذي يَدعو إليـه الدينُ الجديدُ ؟

قـال الـفـارسُ : يَـدعـو إلـى الإيمانِ باللهِ وتَوحيدِه .

قـال الملكُ : من الـذي دخـلَ في الدينِ الجَديدِ ؟

أجابَ الفارسُ : دخلَ الوَثنيُّـونَ في الدينِ الجديدِ وآمنوا بـالله ، ودخلَ فيـه بعضُ اليهودِ وآمنوا بـالله ، وهناكَ فِتنـةٌ بين اليهودِ .



سـألَ الملكُ أخيـراً ، وهـو يَحني رأسَه ويُفكِّر : حـدِّثني كيف دخلَ هـذا الدينُ الجديـدُ إلى نَجرانَ . . حـدِّثني عن المسؤولِ عن تَسلُّلِه .

قال الفارسُ : تسلَّلَ هذا الدينُ عن طريقِ غُلامٍ مُؤمنٍ وجدَه سادتُه الوثنيُّون لا يُصلِّي للنَّخلةِ التي يَعبُدونَها . .

سألوهُ : لمن تُصلِّي إذن ؟

قال الصبيُّ المُؤمنُ : أُصلي لله . . خالق النخلِ وخالق كُلِّ شيءٍ .

قـال الـوثنيـونَ (الـذينَ يَعبُـدونَ غيـرَ الله) : لكنَّ هـذه النخلةَ تَنفعُنـا وتَمنعُ عنا السوءَ .

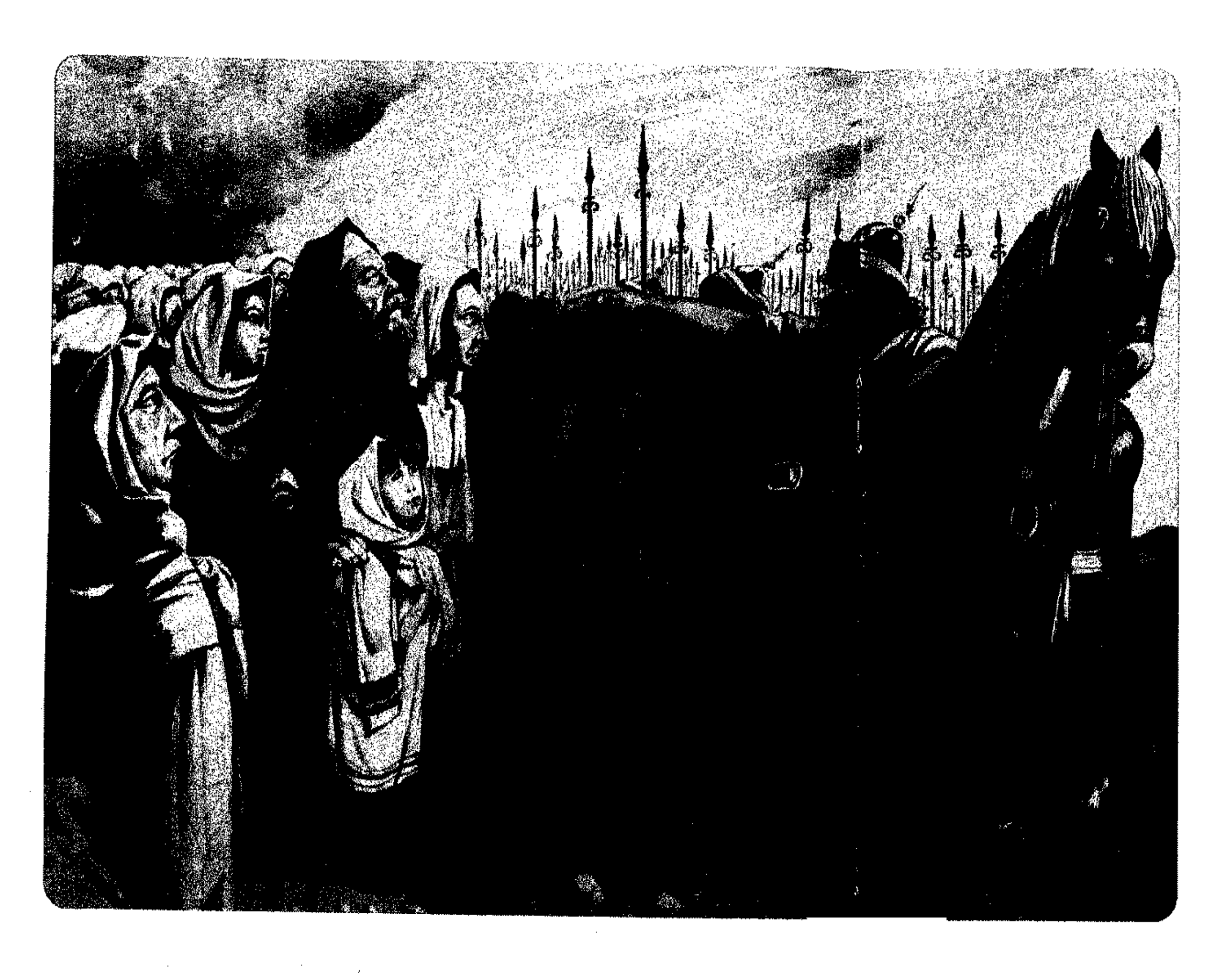
ضحـكَ الصبيُّ سـاخِـراً وقـال : لا تُصدِّقوا ذلك . . النخلةُ لا تَستطيعُ أن تنفـعَ أو تضرَّ بـل إنها لا تستـطِيعُ دفـعَ

السوءِ عن نَفسِها . . لو صلَّيتَ لله لكيْ تَحترقَ النخلةُ فآحترقتْ . . هل تتَّبِعونَ دينَ المسيحِ وتُؤمنونَ بالله ؟

قالوا : نعم . .

وجاءَ الليلُ على الصبيِّ وهو يُصلِّي . . كانَ يُصلِّي ويَدعو . . وتَجمَّعتْ في السماءِ سُحبٌ كثيفةٌ وآشتدَّتْ حركةُ الرِّياحِ . وآكفهرَّ الجوُّ وتغيَّرَ . . وبَرقَ البَرقُ وآرتجَّتِ الأرضُ بصوتِ الرَّعدِ . . وهَوتْ صاعِقةٌ من السماءِ على النَّخلةِ فآحترقَتْ ، وشاهدَ الناسُ جَميعاً مَعبودَهُم وهو يَحترقُ ولا يَستطيعُ أن يدفعَ عن نفسِه النارَ أو يُطفِيءَ الحريقَ .

ودَخلوا في الإيمانِ بالله . .



آستمَع الملكُ صامِتاً عابِساً لِمَا يَقولُه الفارسُ . . آنتهَى من كلامِه فَصرفَهُ . . لَم يكدِ الفارسُ يَنصرِفُ حتى أمرَ الملكُ أن يَجتمِعَ مجلسُ الوُزراءِ وقادةُ الجيشِ . .

آجتمعَ الجميعُ وجَلسوا صامِتينَ وتحدَّثَ الملكُ .

قالَ : أُريدُ أن يستعِدَّ الجيشُ لِلحربِ . . سنُهاجِمُ نَجرانَ . . لقد آمنَ الناسُ فيها بدينٍ غير ديننا . . آمنوا بإلهٍ واحدٍ بشَّر به نبيٌّ جديدٌ آسمُه المسيحُ . . يجب أن نُؤدِّب الذين هَجروا دِينَنا . .

وسوفَ يكونُ تأديبُهم حاسِماً . .

آنفضَّ الاجتِماعُ وآنصرفَ كلُّ واحدٍ إلى عملِه . . ودخلَ الملكُ غُرفتَه وراحَ يشربُ الخمرَ . .

كان الملكُ يَهودِياً قَسا قلبُه وخَلا من الإيمانِ والرحْمةِ ، كان يَهودِياً آبتعدَ

عن تعـاليمِ مـوسَى إلى شيءٍ يُشبِـه الوَثنيةَ . . ولو أنه كان يَهودياً يُؤمِنُ بالله لَمـا كـرِهَ أن يكـونَ هنـاكَ مَسيحيُّـونَ يُؤمنونَ بالله . .

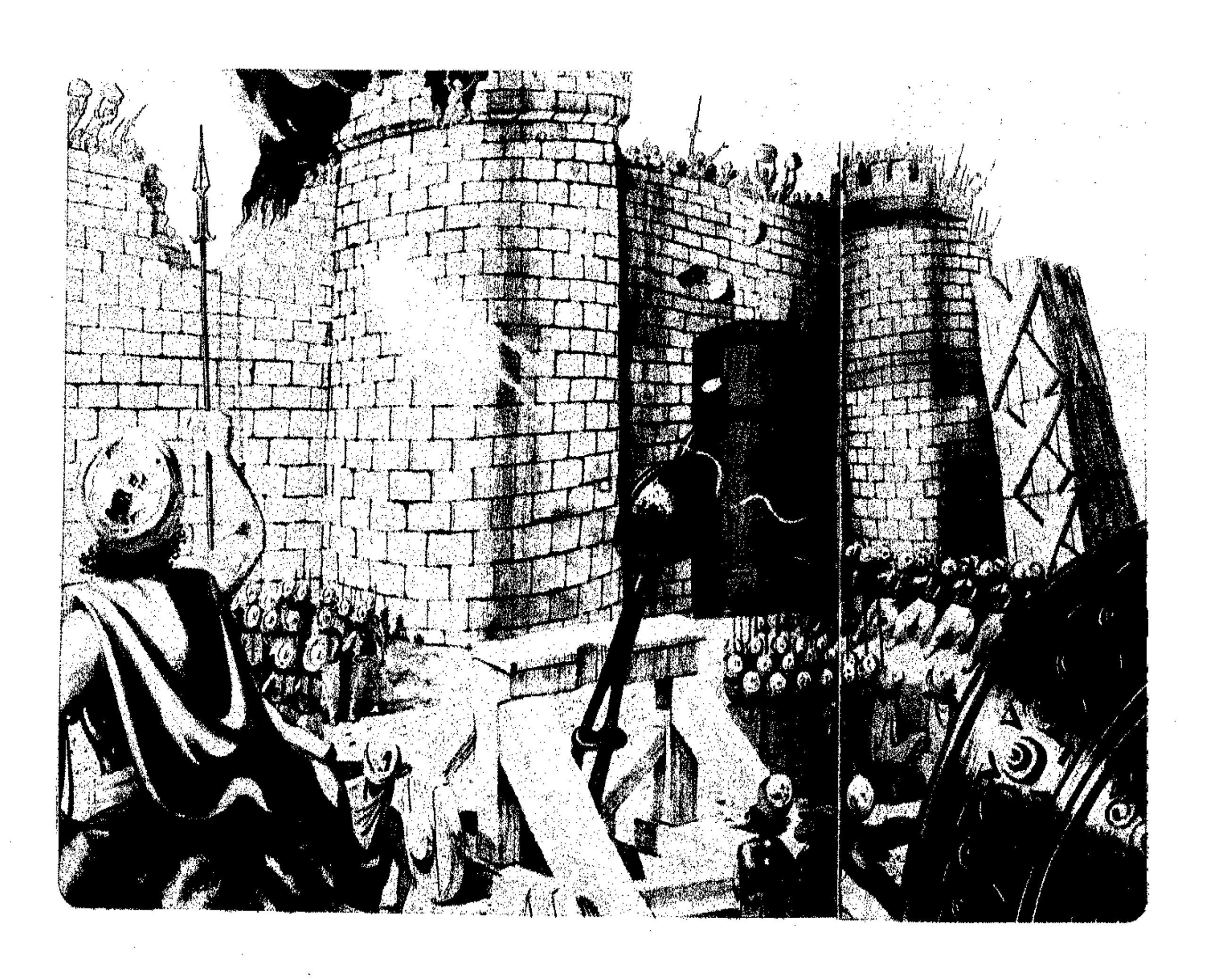
بعد أيامٍ تحرّكَ الجيشُ . .

كـانت خُـطَّةُ الملكِ أن يُحـاصِـرَ المـدينـةَ حتى يَستسلِمَ أهلُهـا ، ثم يَضعُهُم أمامَ أمرٍ من آثنينِ .

إمـا أن يَعودوا إلى دِيـانتِـه بكـلِّ مـا تَنطوي عليـه من شَـوائبَ وَثنيةٍ . . أو يَقتلُهم بنارِ الحريقِ . .

كـان قـرارُه الـظالمُ يعني تَخييـرَ المُؤمنينَ بين الإيمانِ والموتِ حَـرقاً أو الكُفـرِ والنجّاةِ . . وكـان معنَى تَخييرِه أنه يُخيِّرُ المُؤمنينَ بين الموتِ حَرقـاً في الدُّنيا ، والنَّجاةِ من حريقِ الآخـرةِ ، أو النَّجـاةِ في الـدُّنيـا والهـلاكِ في حـريقِ الآخرةِ . .

وكـان الملكُ يـظنُّ أنـه سَيُخيفُ المؤمنينَ بِتهديدِه وجَيشِهِ . .



وصلَ الملكُ إلى نجرانَ وحاصَرهـا بجيشـهِ الهـائـلِ ، وقـاتـلَ أهلَهـا بشجـاعةٍ ، ولكنَّهم كـانوا عَـدداً قَليـلاً يفتقـرُ إلى الـمُعـداتِ والسّـلاحِ ، وآنهـزمـوا ، فـدخـلَ الملكُ المـدينـةَ وأحضـرَ المُؤمنينَ وأوقفَهُم أمـامَـه وهم مُكبّلونَ في السَّـلاسِلِ والقُيـودِ وقال : عُودوا إلى دِيننا وإلا قَتلتُكُم جَميعـاً . . وتكلَّمَ الغُلامُ المؤمنُ . .

قال : نحن نَدعوكَ إلى الإيمانِ بالله أيها الملكُ .

قال الملكُ : سأحـرِقُكُم بالنـارِ بعد صلبِكُم إذا لم تَعـودوا إلى دِيـانـتِكُم السابِقةِ . . أنتم مُتَّهـمونَ بالخِيانةِ العُـظمَى . . إن آختيـارَ دينٍ آخـرَ

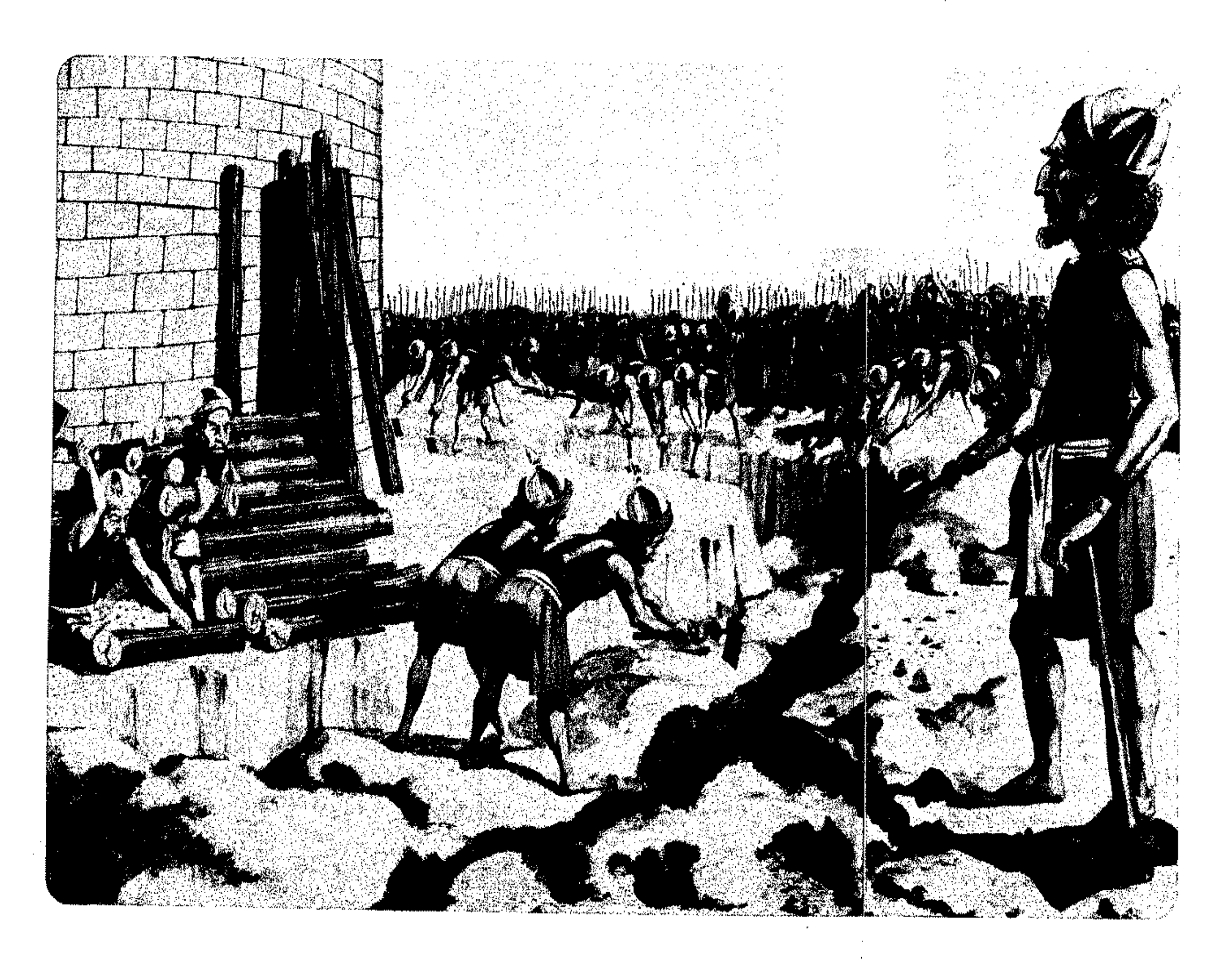
غيـر ديننـا يـعنـي الخِيانةُ . . وهي خِيانةٌ سوفَ تَدفعونَ ثَمنها عَذاباً هائِلاً .

قال الغُلامُ المؤمنُ : لن نَخـرجَ من الإيمانِ باللهِ مهما تَعذِّبنا .

أمـر الملكُ جُنودَه بحفـرِ أُخدودٍ هـائـلٍ في الأرضِ . . تَـمَّ حفـرُ الأُخـدودِ . . فـأمـرَ الملكُ أن يَمـلأوا الأُخـدودَ بـالـحـطبِ الـجـافّ . . مَلأوهُ . . أَمر الملكُ أن يُبلِّلوا الحـطبَ بالزيتِ فَفعلوا . . أمر بعد ذلـك بتقييدِ المُؤمنينَ وراحَ يَضـعُهـم في الأُخــدودِ واحـداً بعـد الآخـر . . حتى آمتـلأَ الأُخدودُ بالمؤمنينَ . .

قال الملكُ الوثنيُّ لِلمؤمنينَ :

أَمـامَكُم فُـرصـةٌ أخيرةٌ لِلعـودةِ في دِيننا . . إذا رَفضتُم أمرتُ بإشعالِ النارِ في الحطبِ . . ماذا تَقولون ؟



لم يقُلِ المُؤمنونَ شَيئاً . . كان حفـرُ الأُخـدودِ بمشابَـةِ طَعنـةِ خـوفٍ نـافـذةٍ مُوجَّهةٍ نحو القلبِ . .

وطِـوالَ الفترةِ التي آستغـرقَها حفـرُ الأُخـدودِ كانت الشّـائعـاتُ تَـتـطايـرُ ، وكان مُجرَّدُ آشتغالِ الجُنودِ في الحفـرِ عَمـلاً مُـرهِبـاً بحَقّ . كـانت النـاسُ لا تسأَلُ أبداً .

ــ لماذا يَحفِرُ الجنودُ هذا الأُخـدودَ العظيمَ ؟

كان السؤالُ مُمتنِعاً وكـانت الإجابـةُ مَعروفةً . .

هنا سوف يُحرَقُ المُؤمنونَ أَحياءً .

ما هو ذَنبُهُم لِيُحرَقوا أَحيـاءً ؟ ما هي الجَريمةُ التي آرتكَبـوها لِيقَـع لهم هذا العِقابُ الأَليم ؟

إنهم يؤمنونَ بالله . . هذا هو كلُّ ذَنبِهم . . وهذه هي كلُّ جَريمتِهم . .

كان هذا كلُّه مَعروفاً . . وكان حَفرُ الأُخدودِ هو الرمزَ النِّهائيَّ لِلظلمِ والطُّغيانِ . .

كانت كلُّ فأسٍ تَرتفعُ لِتهوي على الأرضِ تَرفعُ معها هذه الفِكرةَ الظّالمةَ .

فكرةُ طُغيانِ الطُّغاةِ على المُؤمنينَ . .

سكتَ المُؤمِنونَ ولم يَقولوا شَيئاً . .

رنَّ في أذهانِهم تَهديدُ الملكِ الوثنيِّ الظّالمِ ، كان يُهدِّدُهم بالحَريقِ إذا لم يَعودوا في مِلَّتِه الكافِرة . . وآختارَ المُؤمنونَ الحريقَ . . آختاروا الشَّهادةَ في سبيلِ الله . .

وفهِم الملكُ آختيارَهُم فأَمرَ بإشعالِ النارِ في الأُخدودِ . .



أصبحَ المُؤمنونَ الآن وسطَ الأُخدودِ ، وقد قُيِّدوا في الحِبالِ وَسلاسلِ الحديدِ . .

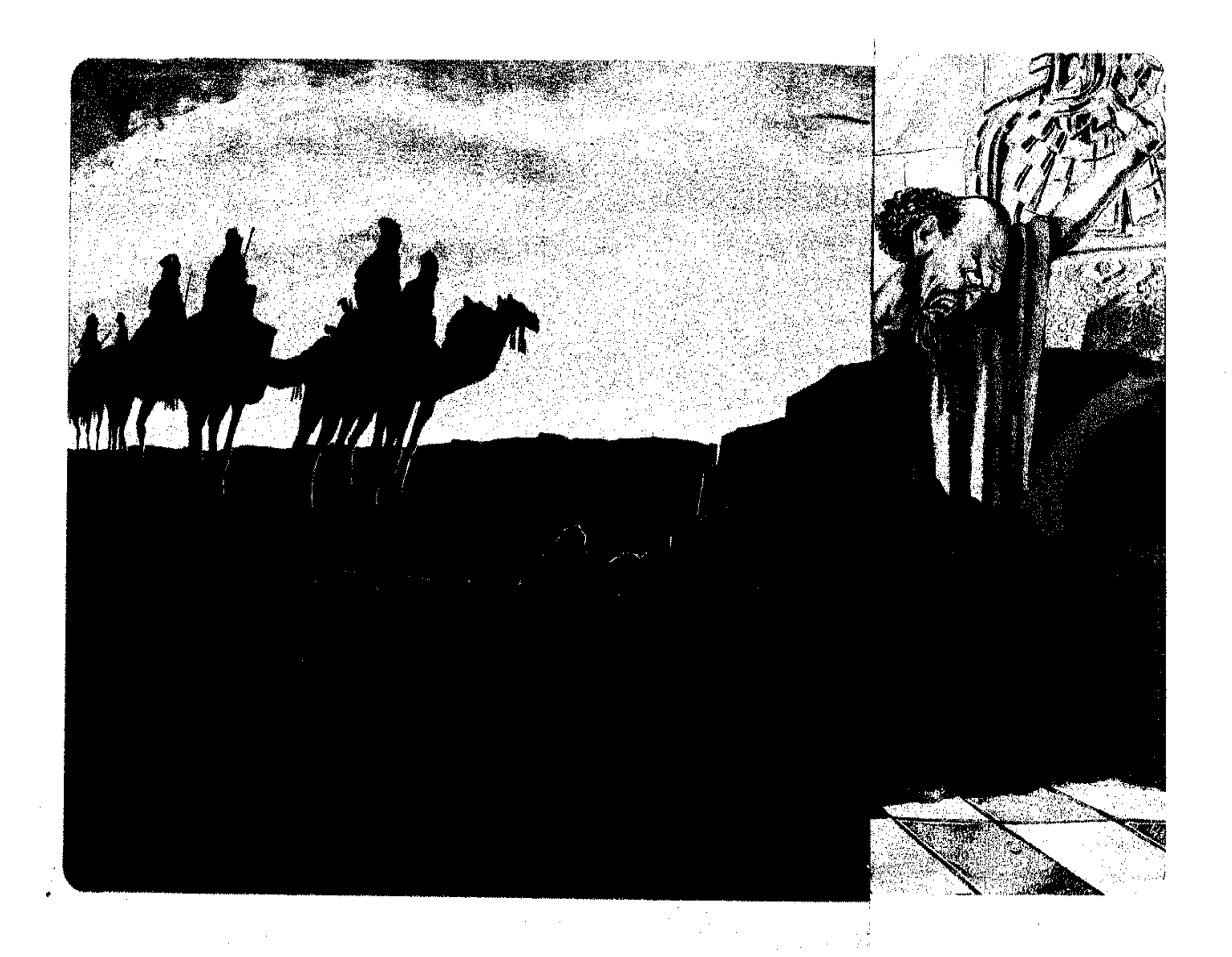
وآشتعلت النارُ وسطَ الأُخدودِ وراحتْ تَتنقَّلُ إلى أطرافِه حتى آشتعلتْ فيه كلّه . .

وَوقفتِ القُوةُ الكافرةُ تَشهدُ عذابَ المُؤمنينَ . . حين بدأَت النارُ تَشتعلُ في المؤمنينَ وقعت أُمورٌ كثيرةٌ ، تصايحَ الكافِرونَ وهلَّلوا ، وسادَ المُؤمنينَ سلامٌ قلبيٌّ عجيبٌ . . أكلتِ النارُ مَلابِسَهُم وأكلتْ جُلودَهُم ومضتْ تحرِقُ أَجسادَهُم ، ولكنّهم آحتمَلوا العَذابَ في صمتٍ ورضا . . وتَحوَّلَ كلُّ مؤمنٍ من المُؤمنينَ إلى شُعلةٍ مُحترقةٍ تُضيءُ وسطَ ظلامِ الحياةِ . .

انصرفَ الملكُ من أمام الأُخدودِ بعد أن تأكَّد أن المُؤمنينَ قد احترَقُوا . .

كان صَدرُه يَغلي بالحِقدِ عليهم . . ولم يكنْ يَنقُم منهم إلا إيمانهم بالله العزيزِ الحميدِ . . كان الملكُ سَعيداً لأنه دمَّرهُم ، واعتبرَ أنه انتصرَ لِكبريائِه وآلِهتِه وأرضاها . .

ومرت أيامٌ قليلةٌ ، وسقطَ الملكُ مَريضاً لغيرِ سببٍ واضحٍ . . زارهُ الأطباءُ من جميعِ أنحاءِ المملكةِ لِعلاجِهِ ، وفَشلوا في عِلاجِه ، واستدعَى أطباءُ المَمالِك المُجاورةِ ، فلم يَعرِفوا سرَّ مرضِه ، وفَشلُوا في عِلاجِه ، وقُدِّمتِ القرابينُ للآلِهةِ الوثنيةِ ، وراحَ الكهنةُ يَسألونَ هذه الأوثانَ شِفاءَ الملكِ ، كان الملكُ يَتعذَّبُ عَذاباً هائِلاً . . لم يكن يَستطيعُ أن ينامَ من فرطِ الآلامِ التي يَحسُّها في جسدِه كلِّه . .



كان يَصرخُ في قصرِه فَيفزعُ الأطفالُ النائمونَ في مَدينتِهِ من هولِ صَرختِهِ . . كان يرى مَشهداً واحداً أمامَ عينيهِ : ابتسامات المؤمنينَ وهم يَحترقونَ في الأُخدودِ . .

وكانتْ هذه الابتسامات تملأُ جَسدَهُ كلَّهُ بوجعِ الحريقِ وآلامِهِ ، ومضتْ حالةُ الملكِ تَسوءُ ، وكان الوجعُ يَدفعُه المدينةِ يقولُ :

ـ هنا . . في هذه الصَّحراءِ . . عاشتْ مدينةُ مأرب . . كان لأهلِها جنَّتانِ عن اليمين وعن الشِّمالِ . .

ثم يبدأُ في رِوايةِ ما حدثَ . .

وهكذا تحوَّل القومُ إلى أحاديث تَرويها القَوافلُ ، ولم يعُد باقياً منهم غيرَ سيرتِهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ
رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن
سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ
۝ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا
فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝ فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ
فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ

صدق الله العظيم